الرقابة الحكومية على الأسواق في إقليمي أذربيجان والران خلال عصر بني مسافر

(٣٣٠ـ ٤٢٠هـ/ ٩٤١ـ ١٠٢٩م)

مدرس مساعد/ ناصر مهني محمد حسين

مدرس مساعد التاريخ الإسلامي

بكلية الآداب – جامعة المنيا.

الملخص:

يهدف البحث إلى التعرف على ظاهرة الإشراف الحكومي لإمارة بنى مسافر في إقليمي أذربيجان والران، ومراقبتها للأسواق التجارية المتعددة في أسواق تلك المناطق، وكذلك التعرف على الأهمية الإدارية لمنصب عمال الأسواق في الإشراف الحكومي ومراقبة الأسعار في الأسواق التجارية المتعددة في تلك المناطق، بجانب رصد لأهم أسعار السلع والمنتجات في أسواق الإمارة المتعددة، والتى تعكس مدى مراقبة حكومة بني مسافر لأسواق مناطق نفوذهم.

الكلمات المفتاحية: الرقابة الحكومية، الأسواق، بني مسافر، الأسعار، المكاييل والأوزان.

مقدمة:

خضعت الأسواق في إقليمي أذربيجان والران خلال عصر بني مسافر لمراقبة كل ما يجري بها من بيع وشراء ومبادلات ومعاملات تجارية مختلفة ومتعددة من قبل حكومة بني مسافر؛ فلقد سهل وجود الأسواق المتخصصة في مدن أذربيجان والران من مهمة الإشراف الحكومي عليها من قبل حكام تلك المناطق.

أولًا: منصب عامل السوق:

لقد كانت أسواق مدن أذربيجان والران خلال فترة البحث، تخضع لرقابة موظف خاص يدعي العامل على السوق(١)، كان يتم تعيينه من قبل الأمير الحاكم، وهو يتمتع ببعض السلطات القضائية والتنفيذية، ويزود ببعض الأعوان والمساعدين الذين يساعدوه على القيام بواجباته ومهامه المكلف القيام بها من قبل حكام تلك المناطق(٢).

والراجح أنه كان من واجبات العامل على الأسواق مراقبة الأوزان والمكاييل(٣)، والتي كان منها أنواع كبيرة مستعملة في المدن الإسلامية، مما يولد اضطرابات وخلافات تستوجب الحل، كما يرجح أن من المهام التى كان يقوم بها التحكيم والفصل في الخلافات التي قد تنشأ بين أصحاب تلك المهن والحرف(٤).

ولقد كان من وظائف ومهام العامل على السوق أيضًا، جمع الضرائب المفروضة من قبل الحكومة على الأسواق(٥)، ومثل تلك الواجبات كانت تستهدف خدمة المصلحة العامة للدولة، ولا تفرض على الصناع أو التجار أو الباعة قيودًا شديدة، ولا تتيح له ـ *أي عامل السوق* ـ مجال التدخل الكبير في شؤونهم، ويمكن اعتبار هذه الوظيفة أصل وظيفة المحتسب، والتي اكتسبت أهمية كبيرة على الدوام في العصور العباسية المتعاقبة(٦).

وعلى الرغم من عدم تصريح المصادر بطريقة مباشرة عن وجود عمال في أسواق أذربيجان والران خلال فترة البحث، لمراقبة حركة البيع والشراء، إلا أن ذلك لا يعني عدم وجودها؛ ويمكن الإشارة إلى بعض الاستنتاجات التي نستدل من خلالها على وجود عمال لمراقبة الأسواق في مدن أذربيجان والران؛ إذ تشير مصنفات البلدانيين إلى أن أسواق مدينة سراه ـ *وهي مدينة بين كورسره وأردبيل* ـ كانت حسنة وفنادقها نظيفة(٧).

ولا ريب أن نظافة تلك الأسواق وظهورها بذلك المظهر الحسن؛ راجع إلى أنه كانت من مهام المحتسب وعماله على الأسواق توجيه العناية إلى نظافة السلع المنتجة، علاوة على نظافة وسائل الإنتاج وحوانيت العمل، فكانت النظافة في كل شيء ضرورة فرضت على أهل الأصناف، وواجبًا يجب عليهم المحافظة عليه، بل وكان يأمر أهل الأسواق بكنسها وتنظيفها من الأوساخ(٨)، وبما أن أسواق مدينة سراه كانت نظيفة، فهذا يعني أنها كانت لا تخلو من عمال السوق المسؤولين عن نظافة الأسواق بهاومراقبة الأسعار والسلع.

ومن الدلائل أيضًا على وجود مراقبين في الأسواق وخاصة أسواق الأسماك، والتي كانت تتطلب عناية خاصة وفائقة في عملية التخزين، وخاصة أسماك الطريخ، التي كانت تُملح وتخزن وتصدر إلى بلاد الجزيرة والعراق من أسواق أذربيجان والران، فلا شك أن الشهرة التي لاقتها أسماك أذربيجان والران في أسواق التجارة العالمية، كان يعني ضمنيًا وجود رقابة صارمة حتى لا يتعرض السمك للتلف؛ ومتى فسد السمك المكسود والطريخ وجب أن يرمى خارج البلاد على المزابل(٩)، وهذا يعني وجود رقابة من الدولة على تجارة الأسماك وطرق حفظها، خاصة أنها كانت تعتتبر من المصادر المالية لحكومة بني مسافر في أذربيجان والران.

وأخيرًا، كان رخص أسعار سلع اللحوم والخبز في أسواق أذربيجان والران دليل على قيام عمال السوق في مدن الإقليمين بضبط أسعار تلك المنتجات فيهما؛ حيث أوردت المصادر أن

سعر الشاه بلغ درهمين، والخبز بدانق أمنان[١٠]، على أن هذا لا يعنى عدم وجود تغيرات موسمية أو محلية مؤقتة في الأسعار، نتيجة بعض الأحداث الطارئة كتلف المحاصيل أو نقص في بعض السلع.

وفي السياق ذاته، تعكس إشارات البلدانيين والرحالة المسلمين عن ازدهار حركة ونشاط الأسواق في تلك المناطق، عن اهتمام حكام بني مسافر ونوابهم على المدن بحماية الأسواق وطرق التجارة المختلفة ـ *وإن كانت لم تصرح بذلك بطرق مباشرة* ـ إذ أنه إذا نُظر إلى النواحي الأمنية والرقابية داخل الأسواق، وجد ازدهار الأسواق وتقدمها يعود بالدرجة الأولي إلى إقرار الأمن والسلام، وعندما يتعرض هذا الأمن للخلل فإنه يؤدى دائمًا إلى الفوضى والاضطراب داخل الأسواق، ويجعل البضائع والسلع عرضة للنهب والسرقة.

لذا كان من البديهي أن تولي الدولة ممثلة في بني مسافر عنايتها بالأسواق؛ لأنها تدر عليهم دخلًا من الضرائب التي يقوم التجار بدفعها، ومما يدلل على صحة ذلك ما أورده ابن حوقل عن الأموال التي حصل عليها المرزبان بن محمد من تجار مدينة أردبيل قائلًا:" بأخذه لأموالهم، والمبالغة في مطالباتهم"[١١]، ومن الجدير بالذكر أن حفظ النظام وتوفير الأمن بالأسواق كان من ضمن مهمات الشرطة، وكذلك الحراسة الدائمة للأسواق وخاصة في الأوقات التي تغلق فيها الحوانيت أبوابها.

وفي نفس ذلك السياق، كان وجود الخانات وفنادق التجار والحمامات للتجار والباعة في أسواق مدن أذربيجان والران، وعلى طول الطرق التجارية بين مدن إقليمي أذربيجان والران، دليل على عناية الدولة واهتمامها بالتجارة ومتطلباتها، إذ تشير المصادر إلى وجود الفنادق والخانات والحمامات بداخل الأسواق وأنها كانت عامرة آهلة[١٢].

ولقد كان من الضروري بسبب ما تعانيه القوافل التجارية من عناء وتعب أثناء سير الرحلة إنشاء العديد من المنشآت مثل الرباطات(الأربطة) والفنادق التي تنزلها السيارة[١٣]، ويحدثنا ابن حوقل على سبيل المثال أنه كان من آل المرزبان رجل مشهور بالكرم، أقام رباطات، ووقف على مصالحها بقرًا سائمة، وجعل عليها قوامين، يحلبونها، ويأخذون ألبانها ويقصدون بها المجتازين عليهم، ومعهم الأطعمة منها ومن غيرها؛ وما من رباط إلا فيه المائة بقرة وما فوق ذلك لهذا الوجه[١٤]، كذلك تحدث البعض عن أسواق ومتاجر مدينة ورثان، والتي كانت تتميز بوجود الأربطة وفنادق للسبيل التي كان ينزل بها المارة والتجار [١٥].

ولا شك إن تلك الإشارات إلى الفنادق والحمامات المنتشرة في مدن أذربيجان والران في عصر بني مسافر، كانت تعكس جانبًا مهمًا في التمدن والتخطيط للأسواق لدى سكان تلك المناطق في العصور الإسلامية، كما أنها تعتبر صورة حية لاهتمام الدولة وعنايتها بالأسواق والتجارة ومتطلباتها سواء بالإشراف عليها والعناية بها، أو بمراقبة عمليات البيع والشراء في أسواق تلك المدن.

ثانيًا: الأسعار والأوزان في أسواق أذربيجان والران كمظهر من الإشراف الحكومي.

أما عن الأسعار في أسواق مدن وقرى إقليمي أذربيجان والران خلال فترة الدراسة، فالغالب عليها بصفة دائمة رخص الأسعار، ويبدو أنها كانت في متناول الجميع؛ حيث أشارت كتب البلدانيين إلى رخص الأسعار في معظم مدن المنطقة بشكل عام[١٦].

على أنه يجب الوضع في الحسبان أن رخص الأسعار هذا لا يعنى عدم وجود تغيرات موسمية أو محلية مؤقتة في الأسعار، نتيجة الكوارث الطبيعية أو الأزمات العارضة التي قد تجتاح مدن وأسواق تلك المناطق، أو تعرض بعض المحاصيل والمنتجات للتلف والعوار، كما أن رخص الأسعار في أسواق تلك المدن كان يعنى ضمنيًا وجود سائر الأصناف.

وعلى أية حال، وبقراءة متأنية لنصوص المصادر يمكن تجميع بعض الأدلة على رخص الأسعار في أسواق مدن أذربيجان والران، حيث أوردت المصادر أن سعر الخروف بلغ درهمان، والخبز بدانق أمنان، وكان سعر العسل في بعض أسواق مدن الإقليمين أن المنوين والثلاثة بدرهم(١٧) بل وكانت أسعار الفاكهة في متناول الجميع؛ حيث أشارت المصادر إلى أنها كانت بلا عد أو ميزان(١٨)، كناية على رخص أسعارها وكثرة إنتاج الثمار في تلك المناطق، كما تميزت أسواق مدينة أرمية أيضًا برخص الأسعار بها(١٩).

وفي السياق نفسه تميزت أسعار أسواق مدينة أردبيل عاصمة الإمارة برخص الأسعار بها لدرجة أن سعر خمسين رغيفًا من الخبز بدرهم، ولحمها بمنها منًا ونصف بدرهم، كما أن أسعار العسل، والسمن، والجوز، والزبيب، وجميع المآكل كالمجان(٢٠).

وهذا دليل على رخص الأسعار بصورة عامة في أسواق تلك المدينة، وكانت الأسعار في أسواق مدينة تفليس بصفة عامة رخيصة على مر الأيام، حيث يذكر ابن حوقل(٢١) بأن الأسعار بها ـ *بناء على زياراته ومشاهداته* ـ كانت رخيصة لدرجة أن سعر العسل بها كان عشرين رطلًا بدرهمٍ، كما تميزت مدينة ميانج أيضًا برخص الأسعار بها بصورة ملفتة(٢٢).

ولذا يتضح أن أسعار السلع في معظم أسواق مدن أذربيجان والران خلال فترة البحث، كانت في متناول الجميع، وأن أسعار سلع تلك المناطق بوجه عام، كانت تتصف بالرخص، وأنها كانت في متناول الجميع؛ نتيجة وفرتها، بجانب الإشراف الحكومي عليها، علاوة على كثرة المعروض منها، إذ من المعلوم أن تلك المناطق عرفت بكثرة خيراتها ووفرة مواردها مما ساعد على ارتفاع في المستوي المعيشي لدى سكانها، إذ كانت بالنسبة لهم موفرة عليهم غلاتها ونعمها(٢٣).

بجانب أن وفرتها بشكل عام، بجانب الإشراف الحكومي عليها، أدت إلى انخفاض الأسعار في أسواق مدن أذربيجان والران على الدوام، وقد لفتت هذه الظاهرة نظر البلدانيين والرحالة، فحوت كتبهم ومصنفاتهم العديد من الإشارات على نحو ما تم عرضه.

ومن خلال ذلك العرض يمكن وضع الجدول التالي الذي يوضح أسعار بعض الأصناف في مدن إقليمي أذربيجان والران خلال فترة الدراسة.

م	الصنف	المدينة	السعر	المصدر
١	الخروف	إقليمي أذربيجان والران	درهمان	المقدسي: ص٣٧٣
٢	الخبز	إقليمي أذربيجان والران	بدانق	المقدسي: ص ٣٧٣
٣	العسل	إقليمي أذربيجان والران	درهم	الأصطخري: ص١٩١
٤	٥٠رغيف	أردبيل	درهم	ابن حوقل: ص٢٨٨
٥	اللحم(مناونصف)	أردبيل	درهم	ابن حوقل: ص ٢٨٨
٦	٢٠رطل عسل	تفليس	درهم	ابن حوقل: ص ٢٩٢
٧	التكة	سلماس	من دينار :عشرة	ابن حوقل:ص٢٩٦

(١) الشيزري(عبدالرحمن بن نصر الشيزرى ت ٥٨٩هـ/١١٩٣م): نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق ونشر: السيد الباز العريني، ط١، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة ١٩٤٦م ، ص ١٢.
(٢) وكيع(محمد بن خلف بن حيان ت٣٠٦هـ/ ٩١٨م): أخبار القضاة، جـ١، ص ٣٤٧، الماوردي(أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصري البغدادي ت ٤٥٠هـ/١٠٨٥م): الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٨م ، ص ٣٣٣.
(٣) الماوردي: الاحكام السلطانية، ص ٣٣٤، عبدالعزيز الدوري: نشوء الأصناف والحرف في الإسلام، مجلة كلية الآداب بالعراق، العدد الأول، ١٩٥٩م، ص ١٨.
(٤) الأصفهاني(أبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ت ٣٥٦هـ /٩٦٦م): الأغاني، جـ٨، ط١، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٣٥م، ص ٢٧٧.
(٥) ابن سلام(أبي عبيد القاسم بن سلام ت ٢٢٤هـ/٨٣٨م): الأموال، تحقيق: محمد عمارة، ط١، دار الشروق، القاهرة١٩٨٩م، ص ٥٣٣، صالح أحمد العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٥٣م، ص ٢٣٩، عبدالعزيز الدوري: المرجع السابق، ص ١٨.
(٦) عن الحسبة ودورها التاريخي انظر. كوركيس عواد: الحسبة في خزانة الكتب العربية، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق جـ١٠،٩، مجـ ١٨، دمشق ١٩٤٣م، ص ٤١٧ وما بعدها.
(٧) ابن حوقل (أبي القاسم محمد بن علي بن حوقل النصيبى ت ٣٧٧هـ/٩٨٧م): صورة الأرض، منشورات مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٩م. صورة الأرض، ص ٣٠٢.
(٨) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص ١٤.
(٩) الشيزري: نهاية الرتبة، ص ٣٣.
(١٠) المقدسي(أبو عبدالله محمد بن أبي بكر البشاري المقدسي ت ٣٨١هـ/٩٩١م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط٣، مطبعة مدبولي، القاهرة ١٩٩١م، ص ٣٧٣.
(١١) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٢٨٨.
(١٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٢٩١.
(١٣) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٣٠٠.
(١٤) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٢٩٣؛ متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، جـ ٢، ترجمه محمد عبدالهادي أبو ريدة، ط٣، مطبعة لجنة التأليف والنشر والترجمة، القاهرة ١٩٥٧م، ص ٤٠٦ــ ٤٠٧؛ حسان سعداوي: نظام البريد في الدولة الإسلامية، ط١، مكتبة مصر بالفجالة، القاهرة ١٩٥٣م، ص ١١٧.
(١٥) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٣٠٠.
(١٦) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٣٧٣.
(١٧) الاصطخري(أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م): المسالك والممالك، طبع في ليدن،١٩٢٧م، ص ١٩١؛ المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٣٧٣.
(١٨) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٣٧٣.
(١٩) الاصطخري: المسالك والممالك، ص ١٨٢.
(٢٠) الاصطخري: المسالك والممالك، ص ١٨١؛ ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٢٨٨.
(٢١) صورة الأرض، ص ٢٩٢.
(٢٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٣٠٢.
(٢٣) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٢٩٨.